# راحـــة

لم يكن غنيا يتدحرج على الذهب ، ولا معدما ينام على القش ، وإنما كان رجلا من أوساط الريف ، يأكل حتى يشبع ، ويشرب حتى يروى ، وينام ملء جفونه إذاجنه الليل ، ولم يتكلف فى كسب هذا العيش المطمئن الفارغ مشقة ولا جهدا ، إنما تركت له أسرته التى كانت حسنة الحال فيما مضى من الزمان بقية من أرض كثر عليها الدين وتنازعها الغرماء ، ولكنها كانت على ذلك تقيه وتقى أهله شر الجوع والحرمان ، ولم يكن مثقفا ولا قريبا من المثقف ، وإنما تركت له أيام النعيم بقية من علم بالقراءة كانت تتيح له أن ينظر فيما يصل إلى القرية من الصحف بين حين وحين . وكانت تمكنه من أن يقرأ فى بعض هذه الكتب التى يمر بها الطوافون على أهل الريف فيحملون إليهم قصصا وطنيا يجدون فى قراءته والاستماع له لذة ومتاعا . وكان راضيا عن حاله ، مطمئنا إليها مغتبطا بها ، لا يفكر فى أن يغيرها أو ينتقل إلى حال خير منها . بل كان يضيق صدره كلما أحس من أهله رغبة فى سعة أو تمنيا لخلاص أرضه من الدين والغرماء .

وكان عقله نائما أو كالنائم ، لا يكاد يفكر فى غير ما يحيط به من أمور أهل القرية ينظرون إليه فى شىء من الإكبار والازدراء والاشفاق معا . يكبرون أسرته القديمة ذات المجد التليد ، ويزدرون فتوره وخموده ، وما انتهت إليه حاله من الخمول ويشفقون عليه مما اضطر إليه من ضيق بعد سعة ، وضعة بعد ارتفاع . وكان كل شىء من حوله مضطربا شديد الاضطراب . فالأحزاب تختصم في غير هدنة ولا أمل فى الهدنة ، والانتخابات النيابية يتبع بعضها بعضا فى سرعة غير مألوفة ، لايكاد يسفر انتخاب عن مجلس من مجالس النواب حتى يحل ويتفرق أعضاؤه ، ثم يستأنف الجهاد ، وتشب الحرب ويكون انتخاب جديد ، ومجلس جديد ، لايكاد يفتتح ويبدأ عمله حتى يرد أعضاؤه إلى حيث كانوا فإذا هم يتفرقون مرة أخرى فى مدنهم وقراهم ليستأنفوا الجهاد ويعيدوا حرب الانتخاب جذعة كما كانت قبل أشهر أو قبل أسابيع .

---

(١) كوكب الشرق ١٤/ ٧/ ١٩٣٣ .

ولم يكن صاحبنا يحفل بهذا كله ، بل قل إنه لم يكن يفهم من هذا كله شيئا . قيل له ذات يوم لابد من أن تثبت اسمك فى جدول الانتخاب ففعل ، ثم قيل له لابد من أن تذهب إلى حيث الانتخابات ، ومن أن تختار نائبا أو ناخبا لنائب ففعل . ويجب أن ننصفه فنؤكد أنه كان شديد الثقة بالعمدة ، لا يأتى فى الانتخاب وما يتصل به من الأعمال أمر إلا بعد أن يشيره . فإذا أشار عليه استمع له ، ولم يخالف عن أمره مهما تكن الظروف ، ومهما تكن المغريات بالخلاف .

ولم تكن ثقته بالعمدة رهينة بشخص العمدة ، وإنما كانت رهينة بمنصبه ، فقد كان العمد يغيرون ويبدلون فى سرعة ملائمة لسرعة الانتخابات وتتابعها بين حين وحين . وكان صاحبنا دائما رهينا بمشورة العمدة القائم ، مطيعا لأمره فى ثقة وتسليم وإذعان . وأشرقت الشمس ذات يوم على ما يحيط بالقرية من الربى وما يطوقها من الحدائق والحقول . واستفاق صاحبنا من نومه سعيدا راضيا كدأبه فى كل يوم . فلما خرج من فراشه أكل كعادته فأكثر الأكل وشرب كعادته فأكثر الشرب ، وأخذ يشعل السيجارة فى إثر السيجارة حتى أحرق منها خمسا كدأبه كل يوم إذا امتلأ من طعام الصباح وقهوته ، حتى إذا استقرت معدته فى جوفه ، وقلبه فى صدره ، وعقله فى رأسه عمد إلى عصاه الغليظة فأخذها وخرج يعبث بها حينا ، ويعتمد عليها حينا آخر فى شىء من الخيلاء لم يكن يقدم عليه أحد من غير هذه الأسرة الخاملة بعد علو الذكر ونباهة الشأن .

ولم يكد يتجاوز باب الدار قليلا حتى لقيه العمدة ومعه من يمثل الإدارة فسلم عليه العمدة فى شىء من الإكبار لم يعهده من قبل ، وهو يقول : أين تذهب ؟ لقد كنا نريد أن نزورك . قال صاحبنا فى شىء من الدهشة والعجب : تفضلوا على الرحب والسعة . ثم التفت إلى العمدة وقال : ولكن هلا بعثت إلى ولم تتكلف مشقة هذا السعى ؟ قال العمدة : وإذا لم يسع إلى أبن فلان وحفيد فلان ، فإلى من يكون السعى ، ثم كانت الزيارة وكان حديث لست أدرى أفهمه صاحبنا أول الأمر حين فهمه ولكنه أكبره ودهش له على كل حال .

ومنذ ذلك اليوم كثر تردده على دار العمدة ، وتردد العمدة على داره . وكثر انتقاله من القرية إلى حيث تقيم الإدارة ، وكثر تردد رجال الإدارة على القرية . وتحول صاحبنا نشيطا بعد فتور ، يقظا بعد غفلة ، ذكيا بعد غباء . وما هى إلا أسابيع حتى كان

صاحبنا عضوا فى البرلمان ، لا يقيم فى قريته البعيدة النائية فى أقصى الريف وإنما يقيم فى باريس أكثر العام : وكان فى أول أمره صامتا فى المجلس طويل الصمت ، ثم أخذ يتكلم قليلا ، ينطق بالجمل القصار ثم الجمل الطوال . ثم أصبح خطيبا يسهب ويطنب ، ويفصح ويبين !! تغير فى شكله وهيئته كل شيء ، وانقطع عنه إلحاح الغرماء ، وخلصت له أرض أبيه وأصبح العمدة يكبره لا عن تكلف ، ولا عن خضوع لأمر الحكام ، ولكن شيئا واحدا لم يتغير فيه ،وهو أنه لم يصدر فيما يأتى من الأمر أو يلقى من الخطب إلا عن رأى رجل قام فى حياته الجديدة مقام العمدة فى حياته القديمة . وهذا الرجل هو الوزير ، فقد ارتفع صاحبنا عن منزلته الأولى بين أهل الريف حيث كان يذعن للعمدة إلى منزلة جديدة فى العاصمة ، فأصبح يذعن للوزير .

وطالت به هذه الحال فانقضى عام وجاء بعده عام ، ولكن صاحبنا أخذ يستفيق بعض الشيء فى العام الثانى ، وحياة العواصم قوية خصبة ، تذكى الشعور الخامد ، وتنبه العقل النائم ، وتفتح البصائر المغلقة . فما أيسر ما تنبه صاحبنا إلى موقفه وشعر بمكانته ، وعرف أنه قد أصبح قوة لا يستهان بها ، ولا يستغنى عنها فكبر فى نفسه ، وأراد أن يكبر فى نفوس الناس . وهنا وجد صاحبنا المشقة ، والعناء كل العناء. نظر فإذا زملاؤه ووزراؤه ورفاقه السياسيون لايزالون ينظرون إليه اليوم كما كانوا ينظرون إليه من قبل ولا يكبرونه ولا يشعرون بجلال خطره . وكلما هم بأن يتقاضاهم شيئا من الإعظام والإكبار ابتسموا له ، ونغضوا إليه رءوسهم ساخرين ، فإذا ألح ذكروه ببيئته الأولى وحياته الأولى ، وأنبأوه بأن طريق العودة إلى هذه البيئة وتلك الحياة ليست بالشاقة ولا بالطويلة . ونظر فإذا كثرة الناس من أهل العاصمة أولئك الذين لا يظفرون بشرف السياسة ومغانمها ولكنهم يحتملون أثقالها ومغارمها ينظرون إليه شذرا ، ولا يقبلون عليه الا بمقدار ما تدعو إليه الحاجة الماسة الى الحديث فضاقت به العاصمة على سعتها ، وضاق هو بالعاصمة على حبه لها ، وأعرض عن أنديتها ومجالسها ، وأعرض عن ملاعبها وملاهيها . وآثر أن يلزم ناديه السياسى ويكثر الاختلاف إلى اللجان البرلمانية فى الصباح ، وإلى الجلسات البرلمانية فى المساء حتى إذا كان آخر الدورة وطلب إلى النواب والشيوخ أن يتفرقوا ليستريحوا من عناء العمل ويريحوا الوزارة من طول الحديث وكثرة الكلام تنفس صاحبنا كالمبتهج السعيد ، فقد آن له أن يدع زملاءه الذين يزدرونه ، وأن يدع أهل العاصمة الذين ينكرونه ، وأن يذهب إلى الريف . هنالك حيث الهواء الطلق ، والربى الجميلة ، وحيث الجبال الشاهقة تحيط بالقرية من بعيد ، وقد اتخذت على قممها

عمائم من الثلج الناصع النقى ، وحيث أهل الريف وطباعهم السمحة ، ونفوسهم الساذجة ، وقلوبهم الطاهرة التى لا تعرف إسرافا فى الحقد والبغض ، ولا غلوا فى الحسد والمنافسة ، والتى لا تجحد فضل الأسر القديمة ، ولا تعرض عن أبنائها ولاسيما حين يكون هؤلاء الأبناء قد أعادوا المجد القديم ، وارتفعوا إلى حيث أصبحوا من أولى الحل والعقد . ومن الذين يرجع إليهم فى تصريف الأمور .

وبلغ صاحبنا قريته مع الصباح بعد سفر أنفق فيه ليالى طوالا وكان يقدر أنه لن يدع العربة حتى يلقاه أهل القرية جميعا مكبرين له مبتهجين بلقائه . أليس قد بلغ رسالتهم وأبلى فى الدفاع عنهم ما أقام فى العاصمة . ولكنه ترك العربة فلم يجد أحدا إلا خادمه الشيخ قد أقبل ينتظره ، فلما رآه حياه ثم شغل عنه بما كان يصطحب من متاع . وتقدم النائب خطوات وأبى أن يركب العربة التى كانت تنتظره وآثر أن يبلغ داره ماشيا ، وكان من غير شك يقدر أن هؤلاء الجاحدين الذين لم يحفوا للقائه سيرونه رغم أنوفهم وهو يسعى فى الطريق وسيحيونه كارهين ، ولكنه مضى فى الطريق يمر أمام المتاجر وأمام الدور ، ويمر به الناس ذاهبين وجائين فلا يلتفت إليه منهم أحد ، ولا يشعر به منهم أحد . وهو يتكلف من الأشكال والصور ما يظهره للناس ولكنهم يمرون وكأنهم لا يرونه فإذا تلقى أحد منهم بالتحية رد عليه تحيته ومضى مسرعا لا يلوى على شىء . ولم يبلغ الرجل داره حتى كان ضيقه بالقرية وأهلها كضيقه بالعاصمة ومن ترك فيها من الناس . على أن أهله كانوا قد تهيأوا للقائه فرحين مبتهجين له ، ولكنه لم يكد يراهم ويرى ابتهاجهم به والتفافهم من حوله حتى أظهر من الفتور والانقباض مارد فرحهم إلى شىء إلا يكن حزنا فهو قريب من الحزن . ومضت ساعة وساعة والصمت طويل بين الرجل ومن يحيط به من أهله وذوى قرباه . فلما أذن الله لهم بالحديث أظهر صاحبنا بعض العجب لفتور أهل القرية فى استقباله وإعراضهم عنه حين كانوا يلقونه فى الطريق ، فابتسمت زوجته وكانت ذكية فطنة وقالت فى رفق : أكنت تنتظر منهم غير ذلك ؟ وقد ذهبت إلى العاصمة وعدت منها وأقمت فيها ما أقمت وأبليت فى العاصمة ما أبليت فلم ينجل عنهم هم ، ولا رد عنهم بأس ، ولا فرج عنهم كرب . لقد كنت أظن أنك قد أقدمت على ما أقدمت عليه وأنت تعلم حق العلم أنك معرض لدفع ثمنه احتمالا لتجهم الناس لك ، وتنكر المتنكرين منهم وسخط الساخطين فيهم .

منذ ذلك اليوم أقام صاحبنا فى الريف كما كان يقيم فى العاصمة لا يرى الناس ولا يراه الناس . وإنما يلزم داره أكثر النهار فإذا لم يكن بد من خروج فإلى دار العمدة فى القرية

وإلى مستقر الإدارة فى المدينة حتى إذا انقضى الصيف ورجع إلى العاصمة ليستأنف حياته العامة لقى زملاءه مبتهجا راضيا مسرورا . وكان يقول كلما لقى منهم أحدا : هلم إلى العمل ، ما أكثر ما ينتظرنا من الجهد هذا العام . لقد لقينا الناس ، وتحدثنا إلى الناخبين وعرفنا حاجاتهم . فقد آن لنا أن نقضى هذه الحاجات ونحقق هذه الآمال ، وإلا فما نحن عنهم بنواب ، وما نحن لهم بممثلين .

كان ذلك فى فرنسا فى أوائل القرن الماضى .